علي الخليلي

المرأة .. في التراث الشعبي الفلسطيني(*)

مقدمة في الثقافة الرسمية ـ الاقطاع :

المرأة (١) في اللغة العربية اسم من مرىء الطعام .. مرأ الطعام فلان : طاب له ونفعه ، ومراءة الطعام كونه مريئا من غير غصص ..(٢) والرجل من الرجل : من يمشي على رجليه (٣) . المرأة ، اذن ، طيب مستكين ثابت للرجل القوي المتحرك . والمرأة في ذلك لا عقل لها ، ولا امتياز لها عن الجماد الا استطابتها واستمراؤها لدى الرجل . فهي المرأة الطعام : « ويهب النسيم فتتحرك الاغصان وتصرخ البنات واق واق سبحان الملك الخلاق . فيبلغ العجب بالملك سيف اشده ، ويقول خاشعا : سبحان من اذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون . ثم يقول للمارد : مرادي ان آكل شيئا من الطعام . فيقول له المارد: واي طعام في الدنيا ألذ من هذه البنات ، واطيب من هؤلاء النساء ؟ ثم يمد يده الى شجرة ، ويمسك بنتا من شعرها ويجذبها ، فيخرجها من فرعها ، ويضعها امام الملك سيف ، فيتأمل هذا يديها ورجليها ورأسها وعينيها ، ويقول : سبحان من خلقها وسواها . ثم يفسخها المارد نصفين ، ويخرج قشرها من الجانبين ، فتفوح منها رائحة زكية ، واذا داخلها فصوص من البرتقال ، وكل فص كبير على قدر الجسم ، وتركيبه مثل تركيب اضلاع بني آدم . فيأكل منها الملك سيف فيجد طعمها مثل الجوز الرطب والشهد المصفى ، واطيب من المأكولات جميعها .. ويتطلع الملك سيف حوله ذاهلا ماخوذا ، ولا يتنبه من ذهوله الا حين يهمس المارد الخيرقان في اذنه قائلا . ايها الملك ، يوجد بالقرب من هذه الجزيرة جزيرة اخرى من جزر الواق الواق السبع اجمل من هذه ، واثمار اشجارها بنات ايضا ، لكنهن احلى صورا وألذ مذاقا من بنات هذه الجزيرة ، وهن يصلحن للاكل والمغازلة وممارسة الحب ايضا .. كما يمكن ان يملحن ليحتفظ بهن الى حين الحاجة الى ذلك كله .. » (٤) وهكذا لم تبتعد الاسطورة التي نشأت وسادت في عضور الاقطاع والعبودية (٥) عن فهم اللغة التقليدي الاقطاعي لها، وانما فصلت الاسطورة هذا الفهم ، فالمرأة تؤكل وتغازل وتنكح، كما انها تملح وتحفظ ! وتوصي امرأة عربية ابنتها ليلة زفافها في خصال عشر لمعاشرة زوجها : « ... فاما الاولى والثانية : فالرضا والقناعة ، وحسن السمع له والطاعة ، واما الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواقع عينيه وانفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم انفه منك الا اطيب الريح ، واما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه ، فان شدة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، واما السابعة والثامنة : فالاحراز لماله ، والارعاء على حشمه وعياله . واما التاسعة والعاشرة فلا تعصي له امرا ولا تفشي له سرا ، فانك ان خالفت امره ، اوغرت صدره ، وان افشيت سره ، لم تأمني غدره . اياك ثم اياك الفرح بين يديه اذا كان مغتما ، والكآبة لديه اذا كان فرحا » (٦) . ان هذه الام العربية تلتزم فلسفة اسيادها

(*) فصل من كتاب « التراث الفلسطيني والطبقات » الذي يصدر هذا الشهر عن دار الآداب ـ بيروت .

(١) لا أناقش وضع المرأة الفلسطينية (١٩٠٠ ـ ١٩٤٧) باستقلالية عن اي من الطبقات ، ولكنني آثرت ان اخصص للمرأة فصلا مستقلا لتمايزها في القهر والاضطهاد .

(٢) المنجد في اللغة والاعلام ، ص ٧٥٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٥١ .

(٤) سيرة الملك سيف بن ذي يزن : نقلا عن « نظرة في ادبنا الشعبي » الفة الادلبي ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٥) اتفق دارسو هذه السيرة على انها دونت في مصر ، وفي القاهرة بالذات في اواخر القرن الرابع عشر واوائل الخامس عشر : نفس المصدر ص ٧٦ .

(٦) شهاب الدين محمد بن احمد الابشيهي : المختار من كتاب المستطرف في كل فن مستظرف ، ص ٢٣١ .

في توجيه ابنتها . فالمرأة ، في هذه الوصية ، اذا كانت قد تجاوزت صيغة « الجماد » الى « العاقل » فأن عقلها لا يخرج عن تكريس صيغة « المرأة الطعام » او « المرأة الجسد » وان هذا العقل مجرد ردة فعل للرجل المشتهي وخاضع لخدمته كليا . « قال عبدالرحمن بن مروان لرجل من عطفان ، صف لي احسن النساء ، قال خذها يا امير المؤمنين ملساء القدمين ، ردماء الكعبين ، ناعمة الساقين . ضخماء الركبتين ، لفاء الفخذين ، ضخمة الذراعين، رخصة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين، كحلاء العينين ، زجاء الحاجبين ، لمياء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شمّاء العرنين ، شنباء الثغر ، محلولة الشعر ، غيداء العنق ، مكسرة البطن » (٧) المرأة الجسد هنا موصوفة لامير ، بمعنى اننا امام المرأة من وجهة نظر الثقافة الرسمية . وهي ثقافة تعتمد الدين في بعض اسبابها . يقول الحديث النبوي « تنكح المرأة لاربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٨) الجمال رسميا احد العوامل الاساسية في نكاح المرأة . ولكن الدين اهم هذه العوامل . « ورغم ان الاسلام حرّر المرأة من قيود كثيرة ، اجتماعية وانسانية في الجاهلية ، فان ثمة تقليدا اسلاميا يجمع على ان الله عاقب المرأة بعشر خصال : بشدة النفاس والحيض ، والنجاسة في بطنها وفرجها، وجعل ميراث امرأتين ميراث رجل واحد ، وشهادة امرأتين كشهادة رجل واحد ، وليس عليهن جمعة ولا جماعة ، ولا يكون منهن نبيّ ، ولا تسافر الا بولي . هذا عدا تفضيل الاسلام الرجل على المرأة من حيث انه « قوّام » عليها » (٩) . يرتكز هذا العقاب الالهي للمرأة على جسدها . فاذا كانت العلاقة اساسا ، في المنظور الاقطاعي ، بين الرجل من طرف سام ، وبين المرأة من طرف منحط ، مبنية على الجسد ، وهو هنا جزء من ممتلكات السيد ، فأن هذا الجسد هو الذي تتحمل المرأة مسؤوليتها ، من خلاله ، في حقارتها ونجاستها . فالرجل السيد يريد اصلا امرأة جسدا ناصعة الجمال لا تتسخ بأي فعل انساني . اي :لا انسانية . جماد جميل . رأي تشويه لهذه الصورة في ملكية الرجل ينقلب الى عقاب في ذات المرأة . ان المرأة لا تتحمل ، مباشرة ، مسؤولية جمالها ، فهو حق مطلق للرجل . ولكنها تتحمل مسؤولية قبحها تماما :

- كل فولة مسوسة والها كيال اعور
- كرّة ودورة على راس العورة
- العورة لابن عمها
- مرة حلوة بالاعمى خسارة
- الحلو حلو ولو فاق من النوم، والبشع بشع ولو غسل يوم

ولذلك ، لا يوجد « الحب » بمعنى انسانية العلاقة، بل « الجنس » بمعنى الاسترقاق . « والواقع ليس هناك امرأة ، بل نساء . النساء بالنسبة للعربي تجسيدات مختلفة للمرأة : عذراء ـ زوجة ـ أمّ . لا مجال للصديقة او الغانية (الزانية) .. فليست هناك حبيبة في القرآن. بل زوجة . وليس فيه حب ، بل جنس ، وصورة المرأة فيه هي صورة الزوجة . والزواج متعة جسدية من جهة، وانجاب ، من جهة ثانية ، ومن هنا تقترن صورة الزوجة بصورة الام » (١٠) . وقد طوّر الصوفيون فهما معينا للمرأة يخلط ، في فلسفة مثالية متمردة ، بين الثقافة الرسمية السائدة ، وبين « تجليات » صوفية سوف تفيد في المستقبل في حركات التمرد العربية . المرأة هي الذات (حواء خلقت من آدم) : الانسان فاعل (يتأمل ذاته ، فيرى فيها الله ، مفكرا بان حواء خلقت منه) ومنفعل (يتأمل ذاته ، فيرى فيها الله ، ناسيا ان حواء خلقت منه) . لكنه في الحالتين لا يحق له معرفة لذاته ولخالقه من طرف واحد . ولكي يصل الى المعرفة الشاملة التي هي فعل وانفعال ، فان عليه أن يتأمل ذاته في كائن هو في آن مخلوق وخالق . وهذا الكائن هو المرأة : حواء التي هي على صورة نفس الرحمن، خالقة الكائن التي خلقت منه (مريم خلقت الله الذي خلقها). ولهذا فان الانثى هي الكائن بامتياز . والحب الصوفي يجمع فيها الروحي والحسي ، ويرتبط بصورة التجلي . فالانثى هي التجلي بامتياز (هي صورة الله) .. ويقول ابن عربي ان المذكر موضوع بين انثيين : اي ان آدم بين ذات الحق التي صدرت عنها ، وحواء التي صدرت عنه . وآدم لا يخلق . فهو العقل الاول ، اما حواء (النفس الكلية) فهي التي خلقت العالم . وتكشف اللغة هنا حقيقة ما ورائية هي ان الانثى اصل الاشياء . فكل ما هو اصل يسمى في اللغة العربية امّا » (١١) . ومن هذه الانثى / الام تأخذ بقية الاشياء اسماءها ، فالكلمة بنت الشفة ، والخمرة بنت العنقود ، والمسافر ابن السبيل ، والرجل المشهور ابن جلا ، والصبح ابن ذكاء .. الخ .

يمكننا الان ان نوجز اهمّ صفات الثقافة الرسمية نحو المرأة :

- رفض الصراع ونفيه ، واعتبار الجمود والثبات كينونة المرأة في الماضي والحاضر والمستقبل .

---

(٧) نفس المصدر ص ٢٤١ .

(٨) سبل السلام ج ٣ ، ص ١٤٥ نقلا عن د . محمد الدسوقي ـ نشأة الاسرة وتطورها بين الاسلام وعلم الاجتماع ، مجلة الثقافة العربية ، عدد ٦ ـ ١٩٧٦ ، ص ٣٥ .

(٩) عيون الاخبار ـ كتاب النساء ـ ص ١١٣ ، نقلا عن ادونيس: الثابت والمتحول ص ٢٢٦ .

(١٠) نفس المصدر ـ ص ٢٢٧ .

(١١) نفس المصدر ـ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

● خضوع المرأة ، في كل طبقات المجتمع، لمقولة واحدة في عبوديتهـا .

المرأة في الثقافـة الشعبيـة :

مقابل تلك الثقافة الرسمية ، كانت تنشأ وتنمـو وتتطور الثقافة الشعبية . ونحـن لا نفترض سدا بيـن الثقافتين ، ولكننا نؤكـد حقيقة الطبقات المسحوقة فـي خلق ثقافتـها التي تتجاوز باحتجاجها وتمردها وثوريتها تلـك الثقافـة الرسميـة السائدة والتي لن تنفك تحاول ان تجهز على ، او تصادر او تعرقل قدرة الطبقـات المسحوقة . ومن خلال هذا الصراع سوف نجد ، احيانا، تداخلا بيـن مواقف الثقافتين ،كمـا سوف نجد اساسا ذلك التناقض المحتّم بينهمـا .

تقول الامثال الشعبية :

ـ مش كل بيضا شحمة ، ولا كل سودا فحمة
ـ خذها بيضا ولو انها مجنونة
ـ البنت الحلوة نص المصيبة
ـ شوف المنيح تسبيح
ـ شو تعمل الماشطة في الوجه البشع

ويقول المنادي في « الف ليلة وليلة » :« يا تجار ! يا ارباب السوق !

ما كل مدوّرة جوزة ، وما كل مستطيلة موزة ، ولا كل بيضاء شحمة ، ولا كل حمراء لحمة ، ولا كـل صهباء خمرة،ولا كل سمراء تمرة . يا تجار ! هذه الدرة اليتيمة، التي لا تفي بها الاموال قيمـة ، بكم تفتحون بـاب الثمـن » (١٢) .

اننـا نواجـه فـي نصـوص هـذه الامثـال الشعبية ، وفي نص الاسطورة التي تقصد ، في هـذه الفقرة ، الى التجار مباشرة ، توافقـا في الموقف بالنسبة للمرأة . وهـو توافق يتأمل في قصد التجار انفسهم . انه ، اذن ، موقف التجار بالنسبة للمرأة ، وليس موقف القياس العام . واذا كانت المرأة فـي النص الاسطوري جارية تباع في اسواق النخاسين ،في القرون الوسيطة، فـان امثالنا الشعبيـة تلك ، لم تحرّف كثيرا في ذات النص ، وان كانت « الاسـواق » نفسها قـد تلاشت علانيتها ، واندست في البيوت ، فتقيم كل عائلة او اسرة او حمولة « سوقها » الخاص المستتر في عادات واعراف الزواج . ولكن « الجارية » كانت تمتاز بالعلم ، بالاضافة الى الجمال . « كانت الجارية تثقف ليزداد ثمنها . امـا الحرة فكانوا يقولون عنها : ماذا ينفعهـا العلم سـوى ان تكتب مكاتب الغـرام ، او طلاسـم السحر ؟» (١٣) . ويقول المثل الشعبـي :

ـ بخت عوّاية ولا بخت قرّاية

هل كان مجتمعنا خلال نصف القـرن الماضـي « يتعامل » مع المرأة ضمن تناقضين :

أ ـ المرأة الحـرة
ب ـ المرأة الجارية

وبتعابير اخرى : شريفـة / غير شريفة ، مستورة/ غير مستورة ، بنت ناس / بنت دايرة على حل شعرها ، القطة بتاكل عشاها / معنترة ..

هل يمكن ان نوافق على هذا التسطيح في الفهـم الشعبـي للمرأة ؟

لقد ماتت تماما تلك الجارية التي ترسمها لنا « الف ليلة وليلة » والتي كانت جزءا من حياة الامراء الاقطاعيين والسلاطين ، امرأة ضعيفـة مغلوبة على امرها لا حول لها ولا طول ، تباع وتشترى ، وقد دربت افانين الاغراء منذ صغرها ، وتثقفت ثقافـة تصلح لمنادمة الرجال في اوقات لهوهم ، وكلمـا تداولتهـا الايدي ماتت في نفسها الكرامة والمروءة ..» (١٤) ونلمس هذا التمرد المبكر ضد وجـود الجاريـة القديمة ، في الامثال الشعبية :

ـ لا أنت احمر مني خد ولا أحسن مني جد
ـ لا ابن ست ولا ابن جارية، كلنا ولاد تسعة

ولكن « موت » الجارية لم يلحق به موت « الست ». فقد تطورت الاوضاع، ومع نشوء البرجوازية ، نشأ مفهوم المرأة الخادمة ـ الخدّامة ـ معانتقال دور المرأة ـ الستـ من بيت الاقطاعي الى بيت البرجوازي :

ـ اذا انا ست وانت ست ، مين تكب الدست ؟

تماما كما كان يقول الاقطاعي تكريسا لوجود خدمه واتباعـه :

ـ اذا انا امير وانت امير ، مين يسوق الحمير ؟

وهنا نقف عند جوهر هام . ان المرأة عموما خاضعة لسلطـة الرجل في قهرها . ولكن المرأة ، في هذاالخضوع العام ، تمتلـك ايضا سطوتهـا من خلال انتمائهـا لطبقة معينة ، اي من خلال انتمائها لزوج له وضع طبقي معين ، او لرجل غير الزوج كالاب ، الاخ .. الخ . ان زوجـة التاجر تضطهد زوجة العامل ، وان زوجة الاقطاعي تحتقر زوجة الفلاح ، كمـا ان زوجة « الافندي » تحتقر زوجة الاجير . ولذلك نسمع في التعبير الشعبي :

ـ زوجة الضابط ، ضابط

ان وقوع المرأة عمومـا في ظلمات القهر الاجتماعي لا ينفي تفاصيل الصراع الطبقي بالنسبة للمرأة نفسها .

ان المرأة ـ الحرمة ، والمرأة ـ العيلة ، المرأة ـ المره،

(١٢) ألفة الادلبي ـ مصدر سابق ص ٣٠ .
(١٣) نفس المصدر ص ٥٧ .
(١٤) نفس المصدر ص ٥٨ .

المرأة الجماعة ، المرأة ـ اجلك الله ! سوف تظل سائدة بين فئات الطبقة الفقيرة في المدينة والقرية ، تعبيرا عن المرأة القديمة التي كانت تسمى« الحرة » . فالرجل الفقير حريص على سمعته وكرامته وشرفه .. الخ . ويربط بين كل ذلك وبين المرأة ـ خاصته ـ ربطا مباشرا . ان موت هذا الفقير وفواحش الغني شيئان لا يسمع بهما احد «موت الفقير وتعريص الغني ما بسمعش فيهم حد » . ولذلك، فانه لا يملك الا حرصه ، حتى انه يأبى ان يقول «زوجتي» او يسميها باسمها . وسوف يسمح لنفسه ان يسميها باسم ابنه البكر ـ ام فلان ـ فقط . وقد يضطر الفقراء الى ضرب زوجاتهم تأكيدا لسلطتهم الوحيدة في المجتمع :

ـ الناس يتقتلني ، وانا بقتل مرتي

وعادة ما تقول المرأة الفقيرة هذا المثل لزوجها الذي يقتلها ـ يضربها ـ تهكما صريحا وسخرية مريرة . ان الاجير المسحوق داخل المدينة لا يجد امامه من يصب عليه غضبه ثأرا من الذين يسحقونه دون ان يستطيع مقاومتهم ، سوى زوجته الضعيفة ، فيضربها ، ويضرب اولاده ، وهو هنا لا يكره زوجته ولا يكره اولاده ، ولكنه يبحث عن موضوع مادي يتحمل تفجراته . ولذلك يقولون :

ـ الفول أكل كل الناس ، الا مرته .

ان الامثال الشعبية تهتم بأدق التفاصيل بالنسبه للمرأة . وان هذا الاهتمام وهذه التفاصيل تؤكد حجم المرأة في الصراع . ولكن الاضطراب في فهم ذلك يؤدي الى استنتاجات غير صحيحة ، كأن تكون الامثال :« هذا الكتاب الجماعي انما هو كتاب نسائي قبل كل شيء» (١٥) و « عندما تلح الامثال على الجانب الجنسي فانها ترجع بنا الى الاصل ، الى وضعية قوامها الحرب بين الجنسين، هذه الحرب هي اقدم بكثير من حرب الطبقات ..» (١٦). ان هذا الفهم السطحي لا يلتفت الى اسباب الصراع في تاريخ تكوّن الاسرة ، ولكنه يركز كليا على قشرة الامثال الشعبية . لقد كان اولا ذلك النظام المشاعي البدائي ، ثم تطوّر الى النظام الاموي ، فالنظام الابوي ، حيث « حل الزواج الثنائي محل الزواج الجماعي (او زواج الزمرة) وصار الزوج يعترف به كأب للاطفال ، والزوجة والاطفال ينتمون اليه بحق الملكية . كانت العائلة الابوية ـ التي يصل عددها الى مائة شخص او اكثر ـ وحدة اقتصادية فوق كل شيء . وقد ادى المزيد من تطور القوى الانتاجية والملكية الخاصة والتبادل الى انقسام العائلة الابوية الى عائلات صغيرة تقوم على الزواج الواحدي » (١٧) .

هكذا يكون تطوّر وسائل الانتاج هو ما حكم العلاقة بين المرأة والرجل ، وليس محض الصيغة الجنسية . والامثال الشعبية اصلا تعبّر عن تطور هذه الوسائل وتناقشها وتتمرد من خلالها على لسان المرأة نفسها داخل الاسرة:

ـ الله مع زوج المدبّرة
ـ التدبير نص المعيشة
ـ نوم السراري للضحى العالي
ـ من رقّعت ما عريت ، ومن دبرت ما جاعت
ـ جوعوا ل تنفلقوا ، وكلوا ل تنهرءوا !
ـ مكسور لا تأكلي ، وصحيح لا تكسري ، وكلي لتشبعي
ـ العيد ساعة والرعنة قتلت حالها
ـ اللي ما بطعمك ولا بسقيك ،ما-بميتك ولا بحييك

ويبلغ الاحتجاج الساخر ذروته :

ـ نيني نيني ، شوك الخس بيأذيني .

في هذا المثل الشعبي يسدّنا عمق المرأة الفقيرة. هذا العمق يتناقض مع المرأة الفنية التي اعتادت الراحة والدعة والكسل ، حتى ان « شوك » الخس يؤذيها ، فهي لا تكنس ولا تطبخ ولا تقطف الثمار ولا تصنع السلال والحصر . اي لا تعمل . ان العمل ، اذن ، داخل الاسرة، مقياس لوضع المرأة . وان تطور هذا العمل ، الى خارج الاسرة ، مقياس متطور لوضع المرأة .

المرأة الفلسطينية والعمل :

كانت الحرف المنزلية اساسية سواء في المدينة او القرية . وكانت المرأة تقوم بدور كبير في هذا المجال . الا ان الرجل ، حتى من خلال هذه الحرف المنزلية ، هو الذي يهيمن ويسيطر . والمرأة ، بالمقابل ، تدفع ثمنا في مزيد من التعب والارهاق والتحطيم اليومي ببقاء العمل المنزلي التقليدي على عاتقها وحدها . يقول لينين ـ المبادرة الكبرى ١٩١٩ ـ : « ان الاعمال المنزلية الصغيرة تثقل كاهل المرأة وتخنقها وتخبلها وتذلها ، اذ تقيدها بالمطبخ وغرفة الاطفال ، وتبدو جهودها في عمل غير منتج بصورة فاضحة ، في عمل حقير مثير للاعصاب ، مخبل ، مرهق » ويؤكد فريدريك انجلز ـ اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ـ : « لن يصبح تحرر المرأة ممكنا الا متى استطاعت ان تشارك على نطاق واسع في الانتاج ومتى اصبح العمل البيتي لا يأخذ من وقتها الا قدرا ضئيلا » .

كانت المرأة الفلسطينية تصرف كل حياتها في بيتها ، تعمل وتكدح خلف الجدران ، حتى يخترمها الموت شيئا فشيئا . يقول الفيلسوف العربي ابن رشد : « ان حالة العبودية التي انشأنا عليها نساءنا اتلفت مواهبهن وقضت على قدراتهن العقلية ، فحياة المرأة تنقضي كما

---

(١٥) حسن الصادق الاسود : امرأتنا من خلال امثالنا الشعبية مجلة الفكر ـ تونس ،عدد ٣ ـ ١٩٧٥ ، ص ٣٩ .
(١٦) نفس المصدر ص ٦٢ .
(١٧) الموسوعة الفلسطينية ص ٤٨٢ .

تنقضي حياة النبات » (١٨) . ولذلك نجد ان الرجل يجفو المرأة العجوز ، ولا يحترم كدحها المتواصل خلال عشرات السنين في خدمته :

ـ بنت الستين خرج السكين
ـ احذر النساء قبل العشرين ، واتركهم بعد الاربعين

الا ان الانسان الشعبي لن يعدم ان يناقض هذا الموقف ، اذ يقول المثل الشعبي :

ـ الدهن في العتاقي
ـ اللي ما الو كبير ما الو تدبير

وهو في ذلك يدعو الى امتلاك التجربة العميقة والطويلة التي تصقل العلاقة الانسانية وتعزّز عطاءها . ولكن المرأة محكومة بظروفها الموضوعية التي وضحها لنا ابن رشد ولينين ، مما يمكّن من فهم الامثال التالية ومناقشتها من خلال هذه الظروف القهرية ذاتها :

ـ المره بنص عقل
ـ مره ابن مره اللي بعطي سرّه لمره
ـ اسمع للمره ولا تاخد برأيها
ـ حيل النسوان غلبت حيل الفيلان
ـ صباح الحية ولا صباح البنية
ـ لا تاخذ رأي المره ، ولا تتبع الحمار من ورا
ـ دق على الطاسة ، الف لحاسة .

لقد كانت الاسرة الكبيرة هي الصيغة السائدة في المجتمع الفلسطيني ، وهي التي تتوفر على قهر كبير للمرأة . ولكن المرأة / الام تخترق ذلك من خلال امومتها :

ـ ام ثمانية عروس ثانية
ـ وام ولد واثنين راح الصبا والزين
ـ وام ولد قايمة ،
ـ وام عشرة نايمة

ان ام عشرة اولاد تنام مرتاحة البال ، حاكمة متسلطة على مجموعة من « الكنائن » والاولاد والاجفاد ... الخ ، وبالتالي ينضبط موقف هذه المرأة ـ الام ـ الحماة داخل الاسرة الكبيرة . والام تكابد لتحقيق هذا الوضع فتقول على لسان ابنائها :

ـ ابن امي ذهب في كمي
ـ ابن ابوك مثل القوم اللي حاربوك
ـ اخوك من امك مثل الذهب اللي في كمك
ـ ابن بطني بعرف رطني

وجدت الام ، هنا ، سلطتها من سلطة اولادها ، وبالتالي من سلطة استقلالها النسبي عن زوجها . وبما ان الاولاد يعملون ، فهي قد وجدت في عملهم حمايتها من اضطهاد الرجل « الكبير » لها . ان مفهوم «الاولاد» هنا يجب ان نستوعبه على اساس الفهم الاقتصادي .

البكارة .. ام الحب ؟

المهر الذي يدفعه العريس للعذراء البالغ العاقل .. اكبر من مهر الارملة ، وبالتالي فان « حماية » البكارة هي حماية تشروة لا ريب فيها ! وبما ان « البنت » من ممتلكات الرجل أبا كان ام أخا كبيرا ، فان هذا الرجل حريص على ذلك « الجزء البشري » من ممتلكاته . فقد كان المهر المعجل باهظا . وكان الاب هو الذي يقبضه . وتوحي التعابير الشعبية بذلك ، فمهر المرأة هو : حقها ، وعقد القران هو : ملاك ، من ملّك يملك ملكا ، بمعنى انتقال الملكية من اسرة المرأة قبل الزواج ، الى الزوج بعد ان دفع الثمن ! فتصير بالنسبة له واجبة عليها قبل ربها :

ـ زوجك قبل ربك
ـ اللي بحط قلوسه بنت السلطان عروسه

ويتوفر الوضوح الكافي للصفقة ـ الزواج :

ـ ابوي باعني وجوزي اشتراني
ـ اللي ما يقدر على الحمرا وعليقها يزول من طريقها

ان « البكارة » هي السائدة . وهي تعبير عن اكتناز اساسي الى حبين . ولكن مفهوم « العرض » يتداخل كليا بمفهوم « الحب » ، فيقول الانسان الشعبي الفقير :

ـ العرض ما بنحمي بالسيف
ـ العب وعاشر والعرض مش داشر
ـ اللي بتتقعّد ما بتتوعّد
ـ الحرة سبع والرجل كلب
ـ حرة الزين بتمشي بين صفين ، وبنت الرجال ما بتستحي من الرجال
ـ حب حبيبك ولو انه عبد اسود
ـ الرجل محل ما بتحب ، بطبّ
ـ ضرب الحبيب زبيب وحجارته قطين
ـ الرايب للنسايب ، والزبدة للحبايب
ـ الحب اعمى
ـ من شاف احبابه ، نسي صحابه .

ما هو هذا الحب ؟ ما مضمونه ؟ هل يتناقض مع تحليلنا السابق للمجتمع الضيق الصغير ـ مجتمع الاسرة الكبيرة ـ هل يتناقض مع تحليلنا للمدينة الفلسطينية ؟ ان تراثنا العربي الشعبي عموما يمتلىء بحكايات الحب الشعبية : قيس وليلى ، عنتر وعبلة .. الخ ، وهو حب

(١٨) نقلا عن مجلة الطريق ـ بيروت ، عدد ٤ ـ نيسان ١٩٧٥ .

عذري مأساوي . هل يبتعد المثل الشعبي عن طبيعة هذه العذرية المأساوية ؟ هل يشترك مع هذا التراث عموما ؟ الحب علاقة تكافؤ تنبت في مجتمع طبقي يرفضها كليا ، فتتشكل في احتجاج مأساوي حتى تنفجر بالموت التراجيديا ـ هل يمكن ان تكرس الامثال الشعبية حبا تراجيديا؟ ولكن السؤال الرئيسي هو : اين موقع المرأة في هذا الحب ؟ نكاد الا نلمح لها اشارة في امثال الحب . انها غائبة ، والمثل الشعبي غامض الى حد ما . هل يمكن ان نناقش هذه الموضوعة وحدها ، وننتهي الى نتائج معينة صائبة ؟ لا يمكن ذلك ،لاننا ،في الاساس ، لا يمكن ان نفصل فصلا ميكانيكيا بين مثل واخر . ان علاقة جدلية تنتظم الامثال جميعها . هذه العلاقة الجدلية هي التي تمنع السقوط في استنتاجات خاطئة او هواجس نحسبها طموحات بعيدة . لقد اكدت لنا الامثال والاقوال الدارجة ان المرأة : مَره ، حرمة ، عورة مدنسة .. الخ، والعلاقة معها محكومة بالجزئيات التي تطمس « الكل » وتحوّل المرأة ذاتها الى وجود مستضعف مهان . كيف يمكن أن نتجاوز كل هذا من خلال بضعة امثال غامضة ؟ سنحاول ان نطرح فهما اخر لهذه الامثال القليلة ، من خلال الوعي الطبقي آنذاك في مجتمع متخلف :

ـ ضرب الحبيب زبيب وحجارته يقطين : عن النزاع الاهلي البيتي الصغير الذي ينشأ بين ابناء العم او بنات العم ، مهما عظم شأنه فلا بأس في تجاوزه ، بل لا بد من تجاوزه .

ـ من شاف احبابه ، نسي صحابه : الاحباب هم الاهل : الاب ، الام ، الاخوة .. الخ .

ـ الرجل محل ما بتحب ، بطب : تعني بيت الزوجية ، الزوجة المحبوبة الطيعة الطيبة .

ـ حب حبيبك ولو كان عبد اسود : دعوة عصبية لحب الاهل ، مهما كانوا ، واللون هنا « تراكم بقايا »من عنصرية اللون .

لا نستطيع ان نتخيّل في المثل الشعبي حالة مستقبلية ، او رؤية بعيدة او حلما . بكلمات اخرى ، لا نستطيع ان نحصل على امنية عامة في المثل الشعبي . ان الامر الوارد في : حب حبيبك.. لا تعني تحريضا مستقبليا على الحب بين رجل وامرأة ، بل هو التزام العصبية القبلية تماما ، كما ان مفردة « الحب » في الامثال السابقة لا تأخذنا في اي شطط رومانسي فنحملها فوق طاقتها من رغبة واقعة الى حالة متمناة . ان المثل في كل جزئياته الحميمة ، انعكاس حدّي للواقع ، ولا يمكن ان يتجاوزه الى الامام قيد انملة . فالتجربة ، جذر المثل الشعبي ، ليست الحلم او الامل او الامنية . لذلك ، علينا ان نفحص الواقع وحده ، ونغوص فيه ، كي نكتشف الجواب على سؤالنا السابق :

أ) مفردة « الحب » ، منذ عدة ، اجيال ، قد تطورت . فاللغة كائن حي متطور،والمثل الشعبي مجموعة مفردات .

ب) كان « الحب الاسري » هو الذي يحكم هذه الامثال ، ومن اسس منهجية في فهم الواقع المتطور ،وفي فهم اللغة ، نستطيع ان نحكم على فهم جديد متطور لهذه الامثال .

ج) لذلك نقول ان هذه الامثال قد تطورت بمضامينها وسوف يستمر تطورها اطرادا بتطور المجتمع .

د) هكذا : يتنامى « الحب » اساسا من الشرائح الطبقية الفقيرة ، ويسود اخلاقيا .

ومن هذا الجواب، نجد في الاقوال الدارجة المحدثة، مشاركة في الصراع : حب اخر زمن ـ الدنيا في اخر وقت ـ انقلبت الدنيا ـ البنت صارت زي الولد ..الخ، وهي تعابير تفضح اكتساح البرجوازية لاركان المجتمع القديم في المدينة الفلسطينية . كما نجد وضوحا تاما في امثال نادرة تفرزها هذه المدينة من واقعها الجديد :

ـ البنت بلا حلق ، داليه بلا ورق
ـ الشاب بلا سيجارة ، مثل البنت بلا اسوارة
ـ الشاب بلا دخان ، مثل البيت بلا نسوان

هذه الامثال تعبّر بوضوح عن نقلة جديدة في المفردة ـ السيجارة ـ وفي المضمون ـ علاقة مشتركة ، مثل واحد : البنت والولد ـ ولكنها قاصرة بعد عن التحدي . غير ان الصورة لم تكتمل ، اذ يجب ان نلاحظ بوعي ، ان امثال الحب تنتشر داخل البيئة الفقيرة . فأغنياء الفلاحين لا يسمحون بتسرّب الارض من خلال الزواج من غرباء، وكذلك اغنياء المدن ، فانتفى الحب من هذه الطبقات الغنية ، في حين لا يفقد الفقراء شيئا في تنمية الحب بينهم ، فلا ارض ولا ثروة لديهم .

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .